المبحث الثالث

شعره قبل الثورة التحريرية

لم يخرج الشاعر أحمد سحنون في هذه الفترة عن نهج جمعية العلماء ، الذي يتمثل في المرجعية الدينية والفكرية والأدبية التي يجب أن تسير وفق الإسلام ، أو وفق الإنسان كما أراده الإسلام ، وفي سبيل ذلك راح ينشئ القصائد ذات المضامين الإسلامية الموجهة إلى الشباب بخاصة ، هذه الفئة التي سخرت لها الجمعية كل وسائلها الممكنة الماثلة في الصحف والمجلات والمساجد والنوادي ، ويعزى هذا التسخير إلى وعي الجمعية بالشباب الذين هم أمل البلاد . يقول ابن باديس في هذا الشأن :[1]

يا نشء أنت رجاؤنا ... وبك الصباح قد اقترب
خذ للحياة سلاحها ... وخذ الخطوب ولا تهب
وارفع منار العدل وال ... إحسان واصدم من غصب
وأذق نفوس الظالمي ... ن السم يمزج بالرهب
واهزز نفوس الجامدي ... ن فربَّما حيي الخشب

لقد أدرك أحمد سحنون هذا الطلب الرشيد ، فوعاه وكتب في شأنه القصائد العديدة التي نقرأ فيها هذه العناوين : (إلى المعلم ...إلى التلميذ ...إلى الكشاف ...إلى الأبناء ...إلى القارئ ...إلى الأمة . .) وفي القصائد نجد النصح والإرشاد ، والحث على التمسك بسمات الوطنية التي تتلخص في جزائر مؤيدة بالإسلام ولغة القرآن ، ونحاول فيما يلي أن ندخل إلى عالم المضامين عنده ، وسيكون الدخول وفق الكم الشعري المؤيد بماهية المضمون الذي شغل تجربة الشاعر .

---

(١) «الإمام عبد الحميد بن باديس» ، د . محمود قاسم : ص ٣١ .

أ ـ شعر النصح والإرشاد

يعتبر مضمون النصح والإرشاد كمّاً أساسياً لدى شعراء الإصلاح في هذه الفترة ، ففيه تتجسّد عشرات القصائد التي لا تخرج عن كونها شعراً تربوياً أخلاقياً تتداخل فيه العوامل المشكِّلة لشخصية الشاعر المسلمة أصلاً مع الواقع الذي يجب أن يكون كذلك .

وشعر أحمد سحنون لا يخرج عن هذه المضامين ذات الكمّ الكبير ، إلاّ أنّنا نستطيع أن نلخِّص سماتها في ثنائية وعظية تربوية أساسها الإسلام المزود باللغة العربية ، وهي الثنائية المشكلة لقصائد هذه الفترة . والمؤكد أن أحمد سحنون إنّما يمارس بها نوعاً من تأكيد الذات المؤيد بالثورة على الواقع الذي يفرض ثنائية حضارية مضادة غريبة عن مجتمعه ، والتي تتجسد في اللغة الفرنسية المؤيدة بالنصرانية ، نقرأ ذلك ـ مثلاً ـ في قصيدته (إلى المعلم) التي يحثه فيها على تأكيد الثنائية في الجيل الجديد[1] :

هات من نشء الحمى خير عتاد ... وادخرهم لغد جند جهاد
هات نشئاً صالحاً يبني العلا ... ويفك الضاد من أسر الأعادي
هات نشئاً قوياً باسلاً ... إن دجا الخطب يكن أول فاد
حطه بالإسلام من كل أذى ... واحمه بالخلق من كل فساد
واهده بالعلم فالعلم سنى ... ومن القرآن زوده بزاد
صغه للإسلام نبراس هدى ... ومثالاً من ذكاء واجتهاد
سر به في طرق مأمونة ... إن في كفيك آمال البلاد

والمضمون نفسه نجده في قصيدته (إلى التلميذ) ففيها نصح خاص ، وإرشاد متميز ، ينبع من وعي الشاعر المحكوم بعلاقة فكرية خاصة أساسها الإسلام ، وهي العلاقة التي يقيمها الشاعر مع من يخاطبه[2] :

---

(١) «ديوان أحمد سحنون» : ص ١٢ .

(٢) «ديوان أحمد سحنون» : ص ١٤ .

لـك فـي كـل حشـى نبـع وداد ... يا رجاء الضاد يـا ذخـر البلاد
شـعبك الموثـق لـم يبـق لـه ... مـن عتـاد فلتكـن خـير عتـاد
لغـة الضـاد التـي مـا برحـت ... لغة الإعجـاز سـيمت بكسـاد
دينـك الإسـلام فـي أوطانـه ... ناله المكروه من أيدي الأعادي
اجعـل العلـم دليـلاً وهـدى ... إنَّما الجهل دجى والعلم هـاد
واقـرأ القـرآن واعـرف هديـه ... إنَّـه نهـج فـلاح وسـداد
خـالق النـاس بخلـق حسـن ... فجمال الخلق عنـوان الرشـاد
هـذه غـايتك المثلـى التـي ... إن تحصلهـا تنـل كـل مـراد

وتمتد هذه المضامين التربوية وتكبر ، حتى تصير عالم الشاعر الخـاص الـذي يحوِّله إلى نداء ، يجهر به في مجتمع تتعرض فيـه ملامحـه وأسسـه الحضاريـة إلـى الإبادة ، وفي النداء نجد الإلحاح على العودة إلى التاريخ الإيجابي ، الذي يحتوي على عناصر النصر والعزة ، ويمكننا أن نقرأ ذلـك فـي مجموعـة مـن القصـائد التـي كتبها في مناسبات الأعياد الإسـلامية التـي وقـف أمامهـا حـائراً متسـائلاً عـن مصـير وطنه ومصير لغته ودينه ، يقول في قصيدته (ذكريات المجد)[1] :

إننـا أحفـاد أبطـال الـورى ... إننـا أبطـال تـاريخ مجيـد
هـل رأى التـاريخ فـي أبطالـه ... مسـعراً فـي الحـرب مثـل ابـن
أو رأى مثـل ابـن عـوف أو رأى ... كـابن عفـان أخـا فضـل وجـود؟
هـل رأى مثـل أبـي بكـر إذا ... ضلـت الآراء ذا رأي سـديد؟
أو رأى مثـل علـيٍّ مثـلاً ... للتُقـى والعلـم والبـأس الشـديد؟
يا فتى العرب الألى شادوا العلا ... وهـدوا للحـق والخلـق الحميـد
إنَّنـا ضقنـا بأحكـام الهـوى ... فتطلعنـا إلـى الحكـم الرشـيد
فامض لا يصرفك عن نيل المنى ... خلـف الوعـد ولا زيـف الوعيـد

(١) «ديوان أحمد سحنون» : ص٢٠٠-٢٠١ .

ومن أسمى مضامين النداء عنده أن يكون إلى المسجد الذي يجب أن يشكل المدرسة الأولى لهذا الشعب الذي تتعرض هويته للفناء ، كما شكلها في زمن محمد - صلى الله عليه وسلم - يقول مخاطباً الشباب[1] :

تعالوا سراعاً إلى المسجد ... إلى ملتقى الرُكَّع السجد
إلى منتدى النخبة الصالحين ... إلى مبتغى الخُشَّع الهُجَّد
إلى مشرق النور للتائهين ... ببيداء في غيهب أسود
إلى عرَصات الهدى والتقى ... إلى مرتقى المجد والسؤدد
هنا الله أكبر يحيي الفؤاد ... صداها وقد ندّ من جلمد
هنا النصر للمسلم المهتدي ... على كل مستعمر معتد

ولا ينسى الشاعر - وهو الخبير بأسرار واقعه - أن يعلن في النشء أن هدفه إنَّما يكمن في التحرير الذي لا يمكن أن يكون إلاَّ بالقرآن المؤيد بالمسجد ، هذه المدرسة التي يتشكل في ظلها إنسان قادر على إنجاز المهمات الحضارية الكبرى[2] :

لقد صنع المسجد المعجزات ... بإنهاض مجتمع معقد
وصاغ نفوس الجدود الأباة ... على شرف الخلق والمقصد
هنا يتحرر عبد الهوى ... ويصبح في عزة السيد
لقد طلع الفجر يا ابن الشمال ... فقم شاهد النور لا ترقد

والواضح أن أحمد سحنون إنَّما يتوفر على فهم إسلامي للمسجد ، هذه المؤسسة الإسلامية التي تتجاوز مهمتها العبادة اليومية المتمثلة في الصلاة إلى التربية التي يجب أن ينشأ في ظلها الوعي الحضاري السليم ، كما نشأ ذات يوم في «دار الأرقم» . والفهم السليم هذا وليد منهج جمعية العلماء ، الذي لا في خرج عن دائرةٍ قوامها : «القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وجهود السلف الصالح» ، فهذه الأسس هي الضامن

---

(١) «ديوان أحمد سحنون» : ص ١٣٨ .

(٢) «ديوان أحمد سحنون» : ص ١٣٨ .

لشعب يطمح إلى النصر ، ولا تتشكل هذه الدائرة إلاَّ في ظل مسجد ذي سمات إسلامية هادفة ، بعيدة عن تلك المساجد التي حصر البعض مهمتها في تراتيل وتمتمات ، عجزت عن تكوين إنسان مبصر لذاته ، ناهيك عن أن يقف ضد الاستعمار الفرنسي ، أو أي مشروع آخر يقف حائلاً بينه وبين إسلامه ، يقول محمد البشير الإبراهيمي في شأن الجهد العلمي الذي تقوم به مؤسسة المسجد في ظل الجمعية وفي منهجها : « . . . أما في المساجد فطريقة الجمعية في الوعظ والتذكير هي طريقة السلف : تذكر بكتاب الله ، تشرحه وتستجلي عبره ، وبالصحيح من سنة رسول الله ﷺ تبينها وتنشرها ، وبسيرته العلمية تجلوها ، وتدل الناس على مواضع التأسي منها ، ثم سير الصحابة وهديهم ، ثم سير حملة السنة النبوية ، وحملة الهدي المحمدي في أقوالهم وأعمالهم كذلك»[1] .

وتغدو السمات الإسلامية المؤيدة بإدراك الذات قضية الشاعر أحمد سحنون مع النشء الجديد ؛ لأنه لا يريد من هذا النشء أن يقف ضد فرنسا فحسب ، بل يتمناه أن يسمو بإسلامه حتى يصير نموذجاً رائعاً للقيادة ، فبه تسمو البشرية وتصفو الحياة في هذا الكون ، وفي ظله يزول الظلم ويسودالعدل ، فقضيته بإذن كمسلم موحد ليست مع فرنسا فحسب بل مع كل «جبار عنيد» يسعى إلى إشاعة الفوضى في العالم :[2]

يا ابن الغزاة الفاتحين ونسل مَنْ ... رفعوا منار العدل في الأمصار

الكون في فوضى تفاقم شرها ... أنقذه فهو على شفير هار

قد ضل مسلكه وتاه دليله ... وبه استبدت نقمة الأقدار

وبلاؤه من كل حكم جائر ... وشروره من سلطة الأشرار

أنقذه بالإسلام فهو شفاؤه ... إن الظلام يزاح بالأنوار

طهره بالتوحيد من أوضاره ... الشرك مصدر هذه الأوضار

---

(١) «آثار الإبراهيمي» - ج٢ :ص١٢٨ .

(٢) «ديوان أحمد سحنون» : ص١١٨ .

ب ـ الإشادة بجهود جمعية العلماء

ومع المضامين السابقة تأتي الإشادة بجهود جمعية العلماء ورجالها ، الذين سخّروا حياتهم لإحياء الجزائر العربية المسلمة ، وحق للشاعر أن يفعل ذلك ، فرجال الجمعية أهل للإشادة وأحق بالفخر ، يقول الشيخ« العربي التبسي» في شأن عبد الحميد بن باديس : «لقد كان الشيخ عبد الحميد هو الجزائر ، فلتجاهد الجزائر الآن أن تكون هي الشيخ ابن باديس» (١) .

إن هذه الإشادة قد شغلت قصائد عديدة كتبها الشاعر أحمد سحنون بعد الحرب العالمية الثانية بخاصة ، وفيها يبين منهج الجمعية وأهدافها وأسسها ، فالجمعية هي قائد الأمة ودليلها نحو النصر ، وهي الضامن الحقيقي لأسس البقاء فيها ، يقول في قصيدته (جمعية العلماء أدت رسالتها)(٢) :

هذه الجزائر ـ لا خابت أمانيها ـ ... قد وحدتها جراحات تعانيها
غن الجزائر واهتف للألى وقفوا ... في وجه كل مغير من أعاديها
واذكر جهود حماة الضاد إنهم ... صانوا حماها وذادوا عن مباديها
تقودها لأمانيها وغايتها ... جمعية العلما جلت مساعيها
جمعية العلما أدت رسالتها ... رغم العوادي ولم تبرح تؤديها
لم تأل جهدا ولم تخضع لطاغية ... ولم تضق بأذى ممن يعاديها

وفي حديثه عن الجمعية لا ينسى أن يذكر علماءها المخلصين الأجلاء ، الذين تحملوا مسؤولية الدفاع عن الجزائر ، وعلى رأسهم الشيخ عبد الحميد بن باديس ، الذي تحمل بأمانة وصبر مسؤولية رئاسة جمعية العلماء ، التي قادت به وبزملائه المخلصين الشعب الجزائري نحو النصر ، فابن باديس روح الجزائر ، ونجمها الهادي

---

(١) «الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس» : ص٢٤ .

(٢) «ديوان أحمد سحنون» : ص٢٥ .

لها في ظلمات الليل الفرنسي الطويل ، ومنقذها من الجهل ، ومرشدها إلى كينونتها التي تجسدت في جهاد نوفمبر (كانون الأول) الخالد .

إن هذه الخصال الحميدة نقرأها عند أحمد سحنون في قصائده : (مات ابن باديس . . الذكرى الثالثة للشيخ عبد الحميد بن باديس . . اكسفي ياشموس . . .)[1] يقول في قصيدته «روح باديس» :[2]

روح باديس ثورة في دمانا ... تتنزى فيحدث الانفجار
روح باديس للجزائر روح ... كيف تثني مضاءها الأخطار؟
روحه نفحة الحياة لشعب ... عيل منه على الهواء اصطبار
كيف ينسى شعب الجزائر باديـ ... ـس وباديس سيفه البتار؟
كيف ينسى شعب الجزائر من كا ... نَ على حقه المضاع يغار؟

والحديث عن الجمعية حديث عن الحقيقة التاريخية ، التي يرد بها الشاعر على أولئك المتهاونين المتخاذلين ، الذين ظنوا بعد الحرب العالمية الثانية ـ أن الجمعية قد أصابها الوهن بفعل موت رئيسها «ابن باديس» ، وبفعل الفتور الذي لحق بعض أبنائها وفي رده يذكر أن الجمعية مازالت بخير ، وأن الله قيض لها بعد موت «ابن باديس» رجلاً آخر لا يثنيه عن العلا إعصار ، هذا الرجل هو الشيخ «البشير الإبراهيمي» الذي تولى رئاسة الجمعية ، وصار زعيمها الثاني بعد «ابن باديس» ، يقول الشاعر[3] :

عزم البشير أحال الضعف عاصفة ... والعزم كالسيف للأخطار بتار
جمعية العلماء اليوم إن طفرت ... نشوى فكم نالها من قبل أكدار
قد هزها من وناها واستقل بها ... نسر تعود خوض الجو جبار
نمضي لتحقيق غايات مقدسة ... فيها يحار بنا باغ وغدار
سلاحنا الحق والإيمان قائدنا ... وجندنا الصبر لا يعلوه إدبار

---

(١) «ديوان أحمد سحنون» : ص٢٣٩-٢٤١-٢٤٣-٢٤٥-٢٤٨ .

(٢) «ديوان أحمد سحنون» : ص٢٤٥ .

(٣)«ديوان أحمد سحنون» : ص٢٨ .

وحديث الشاعر عن الجمعية وعلمائها لا يأتي في ظل المدح المعتاد المؤيد بسمات التزلف ، التي يفرضها شعر المناسبات ، بل هو الفخر والاعتزاز بإنجاز حضاري ، يجب أن يذكره الشعب الجزائري ، وأن يحتضنه ؛ لأنه الأساس المشكل لهويته الضامن لها :[1]

جمعيـــة العلمـــاء غيـــ ... ثـك فـي الزمـان المجـدب
قـد أخصبـت كـل البـلا ... د بكـــل روض مخصـــب
أولتـــك كـــل عنايـــة ... حتـى غـدت لـك كـالأب
يـا أيهـا الشـعب اسـتقم ... فـي السـير لا تتذبـذب
وبحبـــل دينـــك فـــاعتصم ... وبهديـــه فتـــأدب

(١) «ديوان أحمد سحنون» : ص١٢٧ .

جـ ـ الدعوة إلى الجهاد

إن الإصلاح لم يثن الشاعر عن الدعوة الصريحة إلى الجهاد ، الذي يخلص الشعب من محنة الاحتلال ، يقول في قصيدته (إلى التلميذ) :[1]

واجتهد تدرك أمانيك فما ... تدرك الآمال إلاَّ باجتهاد
وليكن حاديك تحرير الحمى ... إن تحرير الحمى للحر حاد
هذه غايتك المثلى التي ... إن تحصلها تنل كل مراد

وفي الدعوة إلى الجهاد تبرز سمات أساسية ، يحاول الشاعر بها أن يصل إلى النموذج السوي الذي يستطيع أن يجاهد ضد فرنسا ، ومنها : العلم والعزم والسير على نهج محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والأسلاف المجاهدين ، فبهذه السمات وحدها تكون الحياة ، وبها يكون الإنسان الجزائري الذي يستطيع أن يحقق النصر :[2]

يا نشء طه المرجى ... وجنده المفدِّيا
محمد ليس يرضى ... بأن تعيش شقيا
إن لم تكن مثل طه ... فلست من طه شيا

والحديث عن الجهاد لدى أحمد سحنون ، لا يعني موقفاً آنياً غاضباً ، يلجأ إليه الجزائريون في ظل الاستعمار الفرنسي ؛ بل هو السلوك الإسلامي الذي يجب أن يتزود به المسلم في كل آن ، والذي يؤهله لأن ينتسب إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولذلك نجد الشاعر ، وهو يضع شروطاً في دعوته إلى الجهاد ، أهمها : أن يقتدي الشباب بالمصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ :[3]

---

(١) «ديوان أحمد سحنون» : ص١٥ .

(٢) المرجع نفسه : ص١٩٦ .

(٣) المرجع نفسه : ص١٩٧ .

حيـاة محمـد فيهـا حيـاة وسـيرته إلـى العليـاء بـاب
إذا لـم تقتفـوا آثـار طـه فليس لكم إلى طه انتسـاب

والشروط هذه نقرأها في معظم قصائد الشاعر ، التي تسير في هذا السبيل ، يقول(١) :

يا فتية الضاد حان الوقت فاطَّرحوا هذا الونى وانهضوا فالناس قد طاروا
سيروا على نهج آباء لكم سلفوا فإنهم في طريق المجد قد ساروا
شقوا الزحام إلى العلياء واقتحموا أخطارها إنَّما العليـاء أخطـار
اسعوا لتحيوا حياة العز أو فَردوا حوض الردى فالردى يمحى به العار
أرواح آبائكم في الخلد قد هتفت تحـرروا فجميـع النـاس أحـرار

وأخيراً ، فإننا قد حاولنا بهذه العناصر الثلاثة ، أن نحصر بعض الموضوعات الأكثر بروزاً في شعر أحمد سحنون قبل الثورة . وهناك موضوعات شعرية ، تنتظر دورها في المراحل الآتية ، حين نجدها ناضجة كماً وكيفاً ، وفيها نقرأ لأزمة الأمة الإسلامية وسبيل المسلمين إلى بعث كيانهم الحضاري الذي يتعرض للفناء في ظل صراع حضاري غير متكافئ .

(١) «ديوان أحمد سحنون» : ص٢٩ .